

المضامين الاجتماعية في قصص مصطفى فاسي (رجل الدارين وقصص أخرى نموذجاً) دراسة تحليلية

أ. لحياني فايزة

أستاذ مساعد_دراسات لغوية وأدبية
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة أدرار

ملخص البحث:

تم اختيار القاص (مصطفى فاسي أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب - جامعة الجزائر) ميدانا للبحث نتيجة لما قدمه هذا القاص من أعمال تدل على قدراته الإبداعية، وقدرة قصصه على طرح القضايا الهادفة والحساسة المتصلة بالحياة الاجتماعية والنفسية للأفراد .

إن قصص(مصطفى فاسي) هي سلسلة من اللوحات المشخصة للواقع الاجتماعي من زاوية نقدية عنيفة، فالقصص تتوزعها هموم مختلفة كالثورة الزراعية والثورة التحريرية والطب المجاني والهجرة والمرأة والتعليم وغيره

Résumé :

Le conteur Mustafa Fassi professeur de littérature arabe à la Faculté des arts - Université d'Alger) a été choisi dans notre recherche en raison de ses travaux et ses capacités créatives à travers ses contes significatifs qui traitent divers aspects de la vie socio-affective des individus.

Les conte de Mustafa Fassi est une série de tableaux qui dépeignent la réalité d'un angle critique assez violent. Ces histoires traitent divers sujets tels que la révolution agricole, la guerre de libération, la médecine gratuite, l'émigration et la femme et l'apprentissage.

المقدمة:

تعتبر القصة القصيرة عن واقع معقد تتحكم فيه عدة معايير متداخلة تكشف عن جوانب متعددة. وتظهر هنا مهمة الباحثة التي تهدف إلى التحليل والنقد للكشف عن جوانب العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع الجزائري كما تعكسها قصص (مصطفى فاسي) وذلك عن طريق تحليل النص القصصي إلى جزئيات وإظهار العلاقات التي تندرج بمقتضاها هذه الجزئيات في كلية فنية مستقلة ذات معنى عام .

تحاول هذه الدراسة أن توضح العلاقة بين الشكل القصصي والبيئة الاجتماعية أي البحث في العلاقة بين الشكل القصصي ذاته وبناء البيئة الاجتماعية التي نشأ في ظلها ولهذا تتطلب هذه الدراسة الاستناد في التحليل القصصي إلى فكرة جوهرية تتمثل في العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع، وسنحاول أن نتعمق في فهم الطبيعة البشرية من خلال أبطال المجموعة القصصية الذين ولدوا من رحم المجتمع الجزائري، أو بعبارة أخرى، طبيعة المادة القصصية التي تتكون بنيتها الأساسية من مواد اجتماعية متعددة، بحيث تعكس في النهاية المجتمع الجزائري بمشاكله المتعددة.

ومن خلال دراسة المجموعة القصصية (رجل الدارين وقصص أخرى) لـ (فاسي) نتعرف على الهموم التي تشغل فكر الكاتب، بيد أن هذه الهموم لا تعني أبدا أن القاص عاشها كتجربة شخصية ولكنها فرضت نفسها عليه انطلاقا من موقفه الفكري، وبذلك أصبحت معايشة هذه الهموم معايشة فنية ومعاينة فكرية، ولكن إلى أي حد استطاع أن يصل (فاسي) بنا من خلال هذه المعايشة الفنية ؟ وهل يمكن اعتبار المجموعة القصصية (رجل الدارين وقصص أخرى) من الأعمال التي عالجت فعلا القضايا الاجتماعية ؟ هذه التساؤلات نحاول الإجابة عليها من خلال مراجعة قصص (فاسي).

المدخل:

المؤلف حياته وآثاره:

أ- حياته:

ولد مصطفى فاسي في يوم 2 فبراير 1945 م بقرية مسيردة بولاية تلمسان وتلقى تعليمه الابتدائي في المملكة المغربية، ثم تابع دراسته الإعدادية والثانوية في الجزائر وتخرج بشهادة ليسانس من معهد الأدب والثقافة العربية بجامعة الجزائر عام 1972 م، ثم سافر إلى سورية وأقام بدمشق للدراسة العليا في جامعتها، فنال شهادة الماجستير في الأدب العربي عام 1982 م حول موضوع ((البطل في القصة التونسية حتى الاستقلال))، عاد على إثرها إلى الجزائر العاصمة فعين مدرسا في جامعة الجزائر، وأول قصة نشرت له هي قصة (وطلعت الشمس) التي نال عليها الجائزة الثالثة في مسابقة أدبية حول موضوع الأرض والفلاح عام 1987 م .

تحصل على دكتوراه الدولة في موضوع (البطل المغترب في الرواية العربية) في الجزائر سنة 2006 م وهو :

-عضو منتخب بالمجلس العلمي لمعهد اللغة والأدب بجامعة الجزائر .

-عضو منتخب بإتحاد كتاب الجزائريين سنة 1976 م .

-عميد كلية الآداب واللغات بجامعة الجزائر .

ب -آثاره:

1 -في القصة :

-الأضواء والفئران، الجزائر 1980 م .

-حداد النوارس البيضاء، الجزائر 1984 م .

-حكاية عبدو والجماجم والجبل، تونس 1985 م .

-رجل الدارين، دمشق 1999 م .

-جنازة الشاعر الكبير، الجزائر 2000 م .

2 - في الدراسة :

- البطل في القصة التونسية، الجزائر 1985 م .
- دراسات في الرواية الجزائرية، الجزائر 2000 م.

3 - في الترجمة :

- ستصدر له قريبا مجموعة قصصية للكاتب الجزائري (بوخلفة بيطام)باللغة الفرنسية بعنوان(زغرودة بين أشجار الدفلى).
- وقد ترجمت بعض قصص مصطفى فاسي إلى الفرنسية والروسية والإيطالية.¹

المبحث الأول: الأرض والهجرة

أ - الأرض:

إن التطرق لموضوع الأرض وكيف تناولته القصة الجزائرية يستدعي الحديث عن الخلفية التي نشأت فيها فئة الإقطاع في المجتمع وذلك من خلال التطور التاريخي للأرض .

فمنذ أن وطأت أقدام الاستعمار الجزائر، عملت فرنسا على تحويل الجزائر إلى مصدر لاستثماراتها ومشاريعها، ونقل اقتصادها وعلاقات الإنتاج السائد بفرنسا إلى الجزائر، التي توجهت مرغمة توجهها جعل منها جمهورية فرنسية صغيرة حيث لا يحسب فيها حساب إلا لمصالح الكولون الفرنسي، فتكون في النهاية ما يسمى بـ ((الاقتصاد الكولونيالي))² .

وكانت السياسة الفرنسية تعمل على توسيع قاعدة الملكيات الزراعية، وزيادة عدد الملاك والمحافظة على ملكياتهم وحدث ((ما اعتقدن أنه العرف السائد في البلدان الإسلامية أي أن الأرض برمتها تعود في النهاية إلى البايك واعتبرت

¹ - مصادر خاصة (لقاء مع القاص مصطفى فاسي في جوان 2008 بجامعة يوسف بن خدة الجزائر العاصمة)

² - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 2

نفسها وريث الدولة التركية فأعلنت الإدارة مصادرة جميع الأراضي التي بدت لها غير مستثمرة¹، ويعطي ((موريس فيوليت)) وصفا لظروف الحياة التي يحياها المواطنون الجزائريون فيقول ((إن كافة الممتلكات الخاصة بالكروم ومزارع الحمضيات والقطن والأراضي الخصبة التي تزرع بالحبوب، كلها في يد الأوربيين، كما أن هؤلاء يمتلكون من جهة أخرى كامل النشاط الصناعي وثلاثة أرباع النشاط التجاري))². أمام هذه الأوضاع لم يكن المواطن والفلاح الجزائري بصفة خاصة ليسكت في وقت تصادر فيه أراضيه، فأعلن الفلاحون مقاومتهم العنيفة ضد الدخيل وحلفائه من الإقطاعيين

إن نهج سياسة اقتطاع الأراضي، نتج عنه تفكيك القبيلة وتشريد أفرادها الذين لم يجد في ملكيتهم سوى قوة عملهم ولذلك عمل كثير منهم كأجراء في المزارع المصادرة وهاجر الآخرون بحثا عن العمل بينما ظلت فئة من الملاك الكبار محتفظة بأراضيها لأنها دخلت مع المستعمر في علاقة تواطؤ مباشر، أما الطبقة المحرومة فلجأت إلى العمل كخماسي لدى الكولون ((وهكذا يكون الفلاحون الجزائريون قد أكرهوا على التخلي عن مجال حياتهم وعن محيط علاقاتهم الإنتاجية - الاجتماعية - الثقافية وأكرهوا على النزوح والهجرة ليعملوا في خدمة المعمرين ويسكتوا بشروط قاسية ومذلة))³.

أهملت الإدارة الفرنسية الفلاح البسيط، بل أرغمته أن يكون أداة طيعة في خدمة الإقطاع، لأن شل فعالية هذه الفئات تماما لم يكن ((ممكنا حتى في نظر

¹ - مغنية الأزرق، نشوء الطبقات الاجتماعية، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية لبنان، ط 1، 1980، ص 58

² - عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 - 1967، ترجمة حنفي ابن عيسى ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 23

³ - أحمد بعلبكي المسألة الزراعية في ريف الجزائر، ج1، منشورات عويدات، بيروت، ط 1985 ص 21.

المستعمر، خصوصا وأنه في أشد الحاجة إلى فئة مؤازرة تقدم له العون من أجل استغلال ثروات البلاد بالشكل المأمول¹))

إن حب الأرض قد تحول فيما بعد إلى حماس وطني، وكان لهؤلاء الفلاحين الدور البارز في ميلاد الحركة الوطنية

فالفلاح الجزائري، إن كان قد تخلص من الدخيل بدخوله غمار الثورة، فإنه لا بد أن يخوض صراعا طبقيًا مريرا لا يقل ضراوة عن الأول لاسترجاع أراضييه التي تحولت من الكولون إلى أيدي كبار الملاك وكان القضاء على العلاقات الإقطاعية السائدة في الريف من أهم المبادئ التي فرضت نفسها على الواقع الجزائري بعد الاستقلال فكانت صيحة هذه الطبقة المحرومة صريحة وجريئة تطالب بالتغيير الثوري في البيئة الاجتماعية للريف لأن ((البداية الحقيقية لكل إصلاح هي إعادة النظر في قضية الملكية فلا يمكن أبدا أن تحقق ديمقراطية في التعليم أو في العمل أو في السياسة، ما لم تتغير هذه الأوضاع الظالمة لملكية الأرض حتى التصنيع نفسه مرتبط بالأرض، لو كان المنطق يسير الأشياء والناس لكانت سنة الاستقلال سنة الإصلاح الزراعي الأول ... وإن كل سنة تمر تجعل هذه القضية أكثر تعقيدا والخطر كل الخطر أن تتكون بورجوازية إدارية إلى جانب البرجوازية التجارية وبذلك يجد الإقطاع فيهما حليفين ممتازين))²

وفي سبيل حل أزمة توزيع الملكية في الريف، صدرت قوانين الإصلاح الزراعي التي توجهت فيما بعد بقانون الثورة الزراعية سنة 1971، وتهدف إلى القضاء على كل أشكال الملكية التي تقود إلى تبديد موارد الدولة من الأرض ومن الماء والقضاء على ((مشكلة الغياب وتعين غياب مالك الأرض عنها وعهده بزراعتها إلى آخر (مزارعة بالتوكيل) لما تنضوي عليه هذه الطريقة من استغلال،

¹ - حميد الحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب 1986، ص 82.

² - عبد الحميد بن هدوقة، نهاية الأمس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1980، ص 148.

كذلك القضاء على الملكيات الكبيرة، كذلك تهدف هذه الثورة على مدى الطويل على تعميم الأسلوب التعاوني في كل القطاع الزراعي¹

فالثورة الزراعية لا تقل أهمية عن ثورة التحرير، أحدثت صراعا وتحولا على الصعيد الاجتماعي، كما شمل هذا التحول الأصعدة الثقافية والاجتماعية التي استقطبت جهود جميع القوى الوطنية ومساهماتها التي راهنت على إنجاح الثورة الزراعية باعتبارها أكبر وأول معركة طبقية وطنية شاملة يشهدها الريف، بل ((ربما كانت أهم ثورة قامت بها بلادنا بعد الثورة المسلحة ... لأنها تهم أكبر طبقة عمالية في بلادنا، وهي طبقة الفلاحين الصغار الذين أثبتوا تعلقهم بالأرض، وأثبتوا ذاك لبقائهم يعملون في هذه الأرض بالرغم من الحيف المسلط عليهم من طرف الاستعمار والإقطاع، وبتضحياتهم المثالية في سبيل هذه الأرض))²

فالقاص (فاسي) تناول في بعض قصصه ظاهرة الإقطاع، وكان همه أن يركز على العقبات التي تقف في وجه الطبقات الفقيرة المسحوقة في محاولة الخلاص من رقة الإقطاع . ومن هنا جاء التركيز على مظاهر الإقطاع والصراع الطبقي الذي أظهرته العلاقات الإنتاجية السائدة في المجتمع، فاعتبر الإقطاع عنصرا مستغلا، سلب حق الفلاحين الشرعي في التمتع بفائض قيمة عملهم اليومي. فحاول (فاسي) في قصصه أن يبحث في ظاهرة الإقطاع، ويقف موقف المعارض له، وأن يضع الحلول لإنهاءه فاستلهم الواقع في معالجة موضوعاته التي تنصل بسلبيات الواقع الاجتماعي الفاسد، وقيمه المتخلفة، وما جعله يولي اهتمامه للإقطاع لأنه ((كان ما يزال قويا في بداية الاستقلال والذي كان من الغرور بحيث اعتقد في بعض الأوقات أنه يستطيع الوقوف في طريق الثورة الزراعية))³

في قصة (وظلعت الشمس) :

¹ - محمد نصر مهنا، تجربة التنمية والتحديث في الجزائر، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط1، 1978، ص 108.

² - محمد مصاييف، دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 63

³ - محمد مصاييف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ط1، ص 28

تتحدث القصة عن فلاح يستيقظ ذات يوم وهو سعيد بالريح الذي جناه في اليوم السابق عندما باع خضره بالجملة¹ وبسبب ذلك قرر ألا يعمل شيئاً في ذلك اليوم لأنه في حاجة إلى شيء من الراحة بعد أن قضى شهوراً متواصلة من التعب²، وفي هذه الأثناء تعود به الذاكرة إلى ذلك الماضي المظلم لتعيد عليه تلك الذكريات المرة³. إذا كان (أحمد الهادي) مجرد مستخدم عند عمه الإقطاعي، (فأحمد الهادي) هو بطل القصة وهو الراوي في الوقت نفسه يكن كرها شديدا لعمه الذي كان يحتقره و لا يعطيه الأجر الذي يناسب ما يبذله من جهد في حث الأرض وسقيها والرعي بالماشية. و مما جعل كره بطل قصة (وطلعت الشمس) لعمه يزداد، هو تعاون العم (أحمد عبد الهادي) مع الاستعمار الفرنسي من جهة واستيلائه على أراضي الفلاحين من جهة أخرى، مستخدماً في ذلك الوسائل نفسها التي كانت تستخدمها السلطات الاستعمارية في الاستيلاء على أراضي الفلاحين إبان الاحتلال.

كان الهادي يتصف بصفات جسمية وأخلاقية، لم تكن من الأمور المحببة عند أهل القرية ((فقد كان سمينا يلبس في أغلب الأحيان (جلابة) من الصوف يكاد بطنه المنتفخ يمزقها، وكان يضع على رأسه الضخم طربوشاً أحمر يغطيه شاش أبيض، أما وجهه فكان مصفحاً يتوسطه أنف غليظ على جانبيه شاربان كثيفان، ولقد كان شديد الاهتمام بهما ومع ذلك لم يكونا يضيفان على وجهه ذلك الوقار الذي يعتقده، وعيناه أيضاً لم تكونا من الأمور التي تضيف عليه

¹ - مصطفى فاسي : رجل الدارين وقصص أخرى، قصة (وطلعت الشمس)، شركة دار الأمانة للطباعة والنشر

والتوزيع، الجزائر 2007، ط1، ص 11

² - مصطفى فاسي : رجل الدارين وقصص أخرى ، ص 11

³ - المرجع نفسه، ص 14

الاحترام، ولعلهما كانت أقبح شيء في وجهه ¹ لم يكن أهل القرية يكرهونه لهذه الصفات فقط، بل لظلمه القاسي الذي يعرفه والصغار الكبار.

لقد رهن (عبد الغني) أرضه لأحمد الهادي وعندما سمع الأخير بنينا استشهاد الأول طالب أرملة (عبد الغني) بدفع ما عليها من دين حتى يرد لها أرضها، وإذا لم تدفع فإنه سيضطر إلى مصادرة الأرض ² وهكذا توسعت أملاك (أحمد عبد الهادي) فأصبحت مساحتها لاتصل إليها العين ³. هذه الشخصية كما تصورها القاص متمرس في الدهاء والمكر يستعمل كما استعمل من قبل كل الحيل في سبيل الحفاظ على أراضيهم فهو أثناء الثورة كان يعمل إلى جانب الاستعمار ولهذا استطاع أن يجمع أملاكاً كبيرة، ويستغل الفلاحين طوال الاحتلال وبعده ((وكل ما يخطط له وما يفعله إنما هو لمصلحته الخاصة، ومن هنا فإن كل الطرق والوسائل متاحة عنده مادامت تساعد على أن يحتفظ بالأرض)) ⁴ ومن جراء هذا الفعل الذي قام به (أحمد الهادي) مع أرملة (عبد الغني) ظهر فقراء كثيرون في القرية بعدما فقدوا أراضيهم. وترجم بطل القصة كرهه لعمه (أحمد الهادي) عندما رفض حرث أرض أرملة (عبد الغني) مما دفع بعمه إلى طرده من العمل وتهديده بالقتل. غير أن بطل القصة عاد بعد الاستقلال إلى قريته ولم يخبرنا القاص أين كان من قبل، ليجد عمه قد مات فتعود إليه ابنة عمه وبذلك تصبح كل الأيام الماضية مجرد ذكريات مرة، حلت محلها أيام سعيدة.

وقصة (وطلعت الشمس) عالجت موضوع قضية الأرض ووجدت حلاً نهائياً عندما أمنت مزارع المعمرين، وترى أن كبار الملاك بالدرجة الأولى والاستعمار بالدرجة الثانية هما السبب في تفكير الفلاحين ومصادرة أراضيهم،

¹ - المرجع نفسه، ص 13

² - المرجع السابق، ص 16

³ - المرجع نفسه، ص 17

⁴ - عبد الله الركبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ط1، الدار العربية للكتاب 1977، ص 207

والقصة تعبر عن هدف واحد وهو أن الاستقلال وضع حدا لكل المشكلات التي كان يعاني منها الفلاحون الجزائريون باسترداد أراضيهم التي كانت بيد المعمرين وكبار الملاك الجزائريين . ولهذا نرى أن (مصطفى فاسي) يقرر أن عم بطل القصة قد مات بعد الاستقلال مباشرة ((لأنه كان يحيا في جو الاستعمار ويتنفس هواءه الآن وقد تغير كل شيء وجاء الاستقلال فإنه لم يستطيع أن يعيش في هذا الآخر ويتنفس هذا الهواء الجديد الذي لا يلاءم رثتيه))¹ .

لا ريب أن حصول الجزائر على استقلالها قد أعاد ترتيب بعض أوجه الصراع الاجتماعي وفتح المجال واسعا أمام الفئات الاجتماعية المحرومة من ازدياد صراعها مع الاستغلاليين وفي مقدمة تلك الأوجه قضية الأرض، وهذا ما جر فاسي إلى القول بأن أراضي (أحمد الهادي) قد عادت إلى الفلاحين، بأن أصبحت كل قطعة ملكا لكل واحد من سكان القرية الوديعة، وقد ذهب أحمد الهادي إلى غير رجعة كما عادت الأرض التي صادرها (أحمد الهادي) من أرملة (عبد الغني) إلى أبنائه . وعلى هذا النحو يغدو كل شيء في قصة (وطلعت الشمس) حيا وجميلا، وأهلها نشيطون لا تفارق البسمة وجوههم²

ومن خلال شخصية (الهادي) الرجل الإقطاعي يكشف المؤلف ((عن الألعاب الدنيئة للإقطاع الذي لا يتوالى عن ضرب كل منجزات الثورة حفاظا على مصالحه المهددة))³ . ولعل (الهادي) المعروف بشيخ الدوار في قصة (وطلعت الشمس) هو الشخصية النموذجية التي تمثل الإقطاع في الجزائر وتحمل كل عيوب الطبقة الإقطاعية وخصائصها.

إذ يعد خائن الوطن منذ أن وضع يده في يده الاستعمار مقابل ملكية الأرض، فكان يضع الأرملة على المحك ((إما أن تؤدي الدين حالا، وإما أن يقدر القضية

¹ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 19

² - المرجع نفسه، ص 12

³ - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 98

إلى المحكمة الاستعمارية التي كان يرشو قاضيها باستمرار ليحكم له . ويكون للإقطاعي ما كان ينبغي من الحكم الجائر، وتمس الأرض ملكا خالصا له ¹ .

إذا فالمقطع الأخير من القصة يترجم سذاجة فهم الواقع في غياب الوعي والإدراك التامين لحقائق الصراع، خاصة وأن القصة كتبت في سنة 1971، سنة شهدت انطلاق الثورة الزراعية .

في قصة (ويعم الحقد فيزداد الفجر ورودا):

إنها قصة مغترب جزائري يجبر على ترك أرضه وأهله ووطنه ليذهب إلى وطن آخر بحثا عن لقمة العيش .

ينتمي (فاسي) شخصية رئيسية يحرك من خلالها أحداث قصته، هي شخصية (أحمد) المغترب بفرنسا الذي عزم على العودة بعد أن سمع بموت حبيبته (ربيعة) والتي قتلها المعمر الفرنسي (مارسيل) . فاستغل القاص خبر الموت لدخول عالم (أحمد) وتفجير شحنته العاطفية والنفسية، فقد وقع الخبر على أحمد وقع الصاعقة وجعله يفكر في الانتقام من الجاني، إلا أن تجربته في الحياة تحثه على أن الحل الفردي لا يوصله إلى مبتغاه إذا لم يكن مصيره مثل مصير (ربيعة)، ولذلك فلا مخرج سوى الحل الجماعي الذي يعد الوحيد القادر على اقتلاع جذور المعمر (مارسيل)، فاحمد مقتنع بأن مقتل (ربيعة) ليس حدثا فرديا ومعزولا، فهو بقدر كونه ذاتيا فإنه عام أيضا. وكأنه أبدى بين ما هو ذاتي وما هو عام، بل رآهما في تناغم وتشابك، كل واحد منهما مرتبط بالآخر، فالقاص يفرق بين (ربيعة) والأرض غير أنه لا يتصور أن لحياة أحمد طعما بدونهما، كما لا يجعل حلول إحداهما محل الأخرى، حلا لمشكلة (أحمد) إذ لكل منهما مكانته في نفسه وفي واقعه الاجتماعي .

¹ - عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران 2004، ص 47

يتتبع (مصطفى فاسي) عملية الاستيلاء على الأراضي الجزائرية والطرق المختلفة التي سلكها الاستعمار في تحقيق أغراضه، يكاد يكون تتبعاً دقيقاً ومفصلاً، وهكذا لم يكتف (فاسي) بتصوير السطح بل حاول أن يغوص في الجذور التي تمتد إلى البدايات الأولى من الاستيلاء على أراضي الفلاحين الجزائريين . ف (فرانسوا) كان فقيراً عندما قدم إلى الجزائر ولم يكن يغطي جسمه إلا معطفاً واحداً صيفاً وشتاءً طوال خمسة أعوام وبمساعدة من الحاكم الفرنسي استطاع أن يمتلك قطعة أرض صغيرة في طرف القرية لكرمهم وإنقاذاً له من الجوع¹ .

وأخذت تلك القطعة الصغيرة في التوسع حتى شملت أطرافاً بعيدة، هذا التوسع كان بطبيعة الحال على حساب الفلاحين الجزائريين الذين كلما ازدادت رقعة أرض (فرانسوا) اتساعاً ازدادوا نزوحاً نحو الجبال، ولذلك دخل معظم الفلاحين في حوزة (فرانسوا) كمستخدمين بعد أن كانوا المالكين الشرعيين² . إن الاستحواذ على الأرض لم يتم دفعة واحدة وإنما تم على مراحل وبطرق ذكية حتى لا تثار ردود فعل عنيفة لدى الفلاحين ((اسمعوا يا جماعة (...))، سأكون كريماً معكم أعرف أنكم فقراء ولديكم أولاد كثيرون (...) كنت كما تعرفون فقيراً لذلك مازلت أرثي للفقراء))³ إنها محلولة من فرانسوا لكسب تعاطف الفلاحين معه حتى يحقق مآربه إضافة إلى هذا يشير الكاتب إلى طرق أخرى سلكها في الاستيلاء على أراضي الفلاحين كاستعمال القوة وإرهاق الفلاحين بالديون، تساعد في ذلك السلطة الاستعمارية التي لم تبخل عليه في يوم من الأيام من تسخير كل ما بوسعها . فالحاكم الفرنسي يساعد (فرانسوا) على إقراض الفلاحين بعد محصولات زراعية سيئة . وحين يعجزون عن تسديد الديون يلجأ إلى مصادرة

¹ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 111

² - المرجع نفسه، ص 109

³ - المرجع السابق، ص 111

أراضيهم¹ ممنيا إياهم باستعادتها حالما يسددون ما عليهم وهو يطمئنهم قائلا : ((إن إن أرضكم ستتحسن بفضل الآلات التي أملكها وهي أفضل من الأدوات التقليدية التي تستعملونها في حركتكم للأرض))² .

ولما خلف جاك أباه (فرانسوا) ثراء على حساب الفلاحين وازداد معه استعمال العنف، فلم يتح أي فرصة لأي فلاح أن يخرج عن طاعته بعدما تمكن من السيطرة على أرض الفلاحين وكل من يخالف له أمرا يكون السجن أو رجال الدرك في تعقبه ليقتلوه . لم يقف (فاسي) عند تصوير الخطوات التي تم بها استيلاء (فرانسوا) ومن بعد ابنه (جاك) ثم حفيده (مارسيل)، على أراضي الفلاحين بل تجاوزها إلى تصوير مدى تعلق الفلاح الجزائري بأرضه ((وتعلقه مستمد من أنها المصدر الوحيد لمعيشته من جهة، وما تمثله الأرض من علاقات وجدانية تشكلت عبر تعامل الفلاح مع الأرض من جهة أخرى))³، إذ استطاع القاص أن يلتقط صورا موحية في هذا المضمار واستوحاها من ذلك الفلاح الذي لم يتصور أبدا أنه سيبعد في يوم من الأيام عن أرضه ولو كلفه ذلك التضحية بنفسه من أجلها كان يؤمن إيمانا لا يتزعزع أنه جزء من أرضه وكل فصل بينهما سيميته، مثل السمك تماما حين يصاد من الماء⁴ وعندما دعت الضرورة إلى أن يموت في سبيل أرضه كانت أمنيته الوحيدة أن يدفن فيها⁵ .

توغل قصة (فاسي) في زمن الاحتلال، وهذا التوغل لم يرم إلى إبراز طرق استيلاء المعمر على أراضي الفلاحين فحسب، بل رمى إلى شدة المقاومة أيضا، والتي أبداهها الفلاح الجزائري منذ أن وطئت أقدام الاستعمار أرضه وبهذا لم تكن

¹ - المرجع نفسه، ص 111

² - المرجع نفسه، ص 111

³ - المرجع السابق، ص 112

⁴ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 112

⁵ - المرجع نفسه ، ص 113

الثورة التحريرية معزولة في ذهن (أحمد)، - ومن ثم الكاتب - عن باقي الثورات التي عرفت الجزائر ومثلما كانت الأرض بالنسبة إلى جد أحمد سببا جوهريا في معاداته للاستعمار وتقديم نفسه قربانا لها (الأرض)، كانت أيضا بالنسبة إلى حفيده (أحمد)، وتعد (ربيعة) و (الأرض) العاملين الرئيسيين (الذاتي والموضوعي) اللذين دفعا (أحمد) إلى الالتحاق بالثورة التحريرية

إن النتائج الإيجابية التي توصل إليها (فاسي) في قصته لا تثبتنا عن ذكر بعض المآخذ التي وقع فيها، ولعل أهمها أن (فاسي) : أبرز أن المعمر الفرنسي قد حصل على قطعة أرض صغيرة من الفلاحين إكراما له وشفقة عليه، إذ مهما تكن درجة كرم الفلاحين، فإننا لا نتصور كرما من هذا النوع لأسباب عديدة، منها أن الأرض مصدر رزق وحيد للفلاحين كما أنها تمثل لهم معاني عديدة، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمفاهيم (الشعبية) السائدة آنذاك فالأرض والشرف صنوان متلازمان، فمن لا أرض له، لا شرف له وهذه الفكرة بقيت راسخة في الوعي الجماعي إلى فترة جد متأخرة، ولم تمنح بشكل نهائي هذا ن فكيف يعقل أن يتنازل الفلاح الجزائري عن أرضه بهذه السهولة وبدافع الكرم، كما يزعم القاص لا سيما وأن (فرانسوا) هذا دخیل على الفلاحين الجزائريين ولا تربطه بهم أدنى رابطة سوى الرابطة مستعمر ومستعمر، إذا لم نقل أنهم يعرفون - ولو سطحية - أنه عدوهم جاء لنهب خيرات أرضهم ومن ثم استقلالهم .

لقد أخفق القاص إخفاقا شديدا في خاتمة قصته، ونزعم أنه لو أنهاها في الفقرة السابقة لنهايتها لكان أحسن، لأن وجود الخاتمة ((يجعلنا نغوص بالضرورة أن شيئا قد سبقها ويجعلنا نحتم أن شيئا لن يلحقها))¹ .

في قصة (ومن الطين) :

¹ - رشاد رشدي، نظرية الدراما من أرسطو إلى الآن، دار العودة، بيروت، ط2، ص 41

في هذه القصة يطرح القاص قضية الخماسة والارتباط بالأرض أي قضية الإقطاعية وكبار ملاك الأراضي، وذلك من خلال فلاح بسيط ارتبط بالأرض وأحبها، فطالما عمل فيها خماسا عند أرياب عمله ولكنه تركها ورحل إلى المدينة بحثا عن لقمة عيش أسهل إلا أن ارتباطه الوثيق بالأرض وحبها لها، حال دون ذلك وسرعان ما عاد إلى الأرض التي ترعرع وكبر فيها ((خلقت طليقا كالريح))¹ وتعود به الدائرة إلى ذلك الماضي السعيد لتعيد عليه تلك الذكريات ((صغيرا هنا كنت ألعب وتبحث ليلاي عني بين الصخور وبين الحشائش وحين ترعرعت أصبحت أحفر هذه الأرض بالفأس أخرج خيراتها))². فكان هذا الفلاح مجرد خماس عند كبار ملاك الأراضي وما عليه إلا السمع والطاعة ((أمرك سيدتي، اطلبي ما تبغين، إني في الخدمة))³، فهو فلاح بسيط يبحث عن لقمة عيشه من أجل عائلته، ولا يبحث عن ترف العيش والحياة الرغيدة.

إنه يشقى كثيرا، ويعمل وحده، حتى أنه لا يرى مالك المزرعة إلا قليلا ((عند جني الغلة ليصدق علي برغيف يابس))⁴ ولكن سرعان ما بزغ فجر جديد على (أحمد) وودع دنيا الخماس، ولن يصبح خماسا بعد اليوم أبدا، وذلك بعودة الأرض.

ب - الهجرة:

للهجرة عوامل كثيرة أهمها الحاجة إلى العمل، وهذه الحاجة كانت تزداد حدة من سنة إلى أخرى، والقمع الاستعماري هو الذي يقوي الأداة الفعالة إلى الهجرة. وكثرة الضرائب والمتابعات الإدارية كانت تشكل الأداة الفعالة لقمع الفلاح، وجعله يختار الطريق معامل فرنسا الكبرى، كان الفلاح يحاول البقاء فوق أرضه

¹ - المرجع السابق، ص 92

² - المرجع نفسه، ص 93

³ - المرجع نفسه، ص 93

⁴ - المرجع نفسه، ص 93

غير أن الإجراءات الإدارية كانت تعزله عن العالم يوم بعد يوم وتجعله يحس بوحدة وعجز لا حد لهما¹ في قصة (مغترب):

وندخل عالم ما بعد الثورة، عالم الاستقلال من خلال قصة (مغترب) التي يعالج فيها القاص كما يوحي بذلك العنوان، قضية الهجرة وفي الواقع القاص لا يعالج هذه القضية بقدر ما يعطينا شخصية متهافنة في تكوينها تنعكس من خلالها رؤية تشاؤمية لهذه القضية فالبطل بعد ست وثلاثين سنة قضاها في فرنسا مهاجرا، وبعد أن غزته الشيخوخة وأضعفت عوده، يقرر العودة إلى الجزائر فهو مستعد للرحيل، لقد حزم أمتعته لمغادرة ميناء مرسيليا ولم يبق إلا وقت قصير لسفره وفي طريقه يقول لنا أنه عندما جاء إلى فرنسا كان شابا ويحمل القنطار ويجري به دون أن يحس بأي تعب²، واليوم هو يسعل ولا يقوى على تحمل البرد القارس ؟ ويزكرنا أيضا بمستخدميه الذي كان بطلنا من العمال الذين كانوا ((سبب نجاحه وسبب حصوله على الأرباح الطائلة))³، ولكن هواجس باطنة لا تزال تلح على المهاجر من أجل أن لا يعود فإلى أين يعود ؟ وعند من يقيم ؟ ومن سيلقاه ممن ابتعد عنهم طويلا من الأقارب والجيران ؟ وما سبب هذا القرار المفاجئ بعد أن قضى معظم عمره في المهجر ؟ وكيف ستكون حياته في جو جديد لم يعرف عنه شيئا ؟ وذلك كله لمجرد أنه يحب أن يعيش ما بقي من عمره في أرض الوطن الذي لم يقدم له أي شيء في ساعة المحنة ؟ ولا تزال النفس تسول له التراجع عن قراره، حتى عدل عن عودته إلى أرض الوطن بعد أن ذكر أن لاشيء يربطه بهذا الوطن الآن. فقد أمه وأباه منذ زمن طويل، وقد انقطعت أخبار الأهل عنه فأين يذهب إذن ؟ ومن سيرحب به ؟

¹ - محمد مصايف، القصة العربية الجزائرية في عهد الاستقلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982، ص 40

² - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 22

³ - منور بن يمين، تحطيم الواقع بشكل تقليدي، جريدة الجمهورية، عدد 25 سبتمبر 1980، الجزائر

نلاحظ تناقضا في سياق القصة بين البداية التي تعرف فيها إصرار البطل على السفر والمخاوف التي تداهمه في وسط القصة، وهذا أمر كان ينبغي على القاص تجنبه ((لأنه في نظري سيء للقصة، ويجعل صدقها الفني متخلخلا، كما جعلنا نشعر وكأن القاص لم يجد من مخرج لقصته إلا مداهمة بطله بتلك المخاوف، فلو ذكر تلك المخاوف من البداية لكانت القصة أكثر صدقا وأكثر تكثيفا على المستوى الفني وهذه المخاوف تتمثل في كون البطل لا يجد ما يبرر عودته إلى قريته لأنه لم يعد له أهل هنالك))¹. فقصته (المغترب) التي تحاول الحديث عن الهجرة ((لم تفلح في طرح قضية الهجرة بل طرحت قضية إنسان أصيب بالملل في بلاد الناس، فقرر أن يترك الضجيج والازدحام ليعود إلى بلاده ولكن حتى هذه العودة لم تتم، لينتهي المطاف بصاحبنا إلى الخمارات ليبدد همومه بصفة انهزامية))².

لعل القاص (مصطفى فاسي) في هذه القصة وضع حدا لحياة بطله في وقت كانت المساحة ما تزال شاسعة لتتبع حركاته ودفعه إلى اتخاذ مواقف متقدمة جدا وأكثر وعيا ((الشيء الذي لم يكن (قصة مغترب) فالرجل المسعول الذي ينوي العودة بعد غياب أكثر من 36 سنة ينتهي على قارعة شوارع مرساي - قد يكون ذلك حقيقة لكن إذا فرضنا جدلا أن العالم أسود هل يجوز للفنان الواقعي الجيد أن يكون متشائما ولا يرسم الرؤيا بقتامة ؟))³

في قصة (العائدون):

وتعتبر من أجمل قصص المجموعة لصدقها وبساطتها، تتحدث عن عودة اللاجئين الجزائريين من مهجرهم السياسي سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف، ولكن من زاوية واحدة هي زاوية ذكريات المؤلف الذي كان طفلا آنذاك، وفي هذه

¹ - المرجع نفسه، ص 8

² - أحمد حمدي، إشكالية الموقف، جريدة المجاهد، عدد 1060، نوفمبر 1980، الجزائر

³ - واسيني الأعرج، ولادات (لاسنيد) المستعصية، جريدة الجمهورية، عدد 04 سبتمبر 1980، الجزائر

القصة تجد شهامة الإنسان الجزائري وثورته، فبرغم من أنهار الدم فإن هؤلاء العائدين الذين يقيمون أفراح الاستقلال يرسلون الكسكسي إلى مراكز العسكر الفرنسي الذين أضنتهم الحرب وويلاتها ومع ذلك فإن الطفل الذي يحمل علما وطنيا يأبى أن يسلمه لأحد الفضوليين من الفرنسيين الذي أغدق على الطفل بهدايا من الحلوى .

وأخيرا يمكن القول أن قصص (فاسي) جعلت قضية الأرض والإقطاع والهجرة محاور أساسية تدور حولها الأحداث، وتناولت قضية الأرض في إطار العلاقة بين الفلاح والإقطاعي فعالت الموضوع محورا من محاور الصراع الاجتماعي خلال مرحلة الاستقلال، باعتباره استمرار لصراع سابق خاضه الفلاح ضد المستعمر الأجنبي . فربطت الموضوع بجذوره التاريخية، كما رصدته في ضوء التحولات الاقتصادية والاجتماعية فحاولت أن ترصد الإقطاع ومراحل تكونها في المجتمع وأساليب استغلالها، وصورت في المقابل الفلاح الذي فقد الأمل في أرضه لأن الطبقة الإقطاعية استطاعت أن تستحوذ على الأرض وتستغلها .

أما عن الهجرة إلى خارج البلاد، في البداية، كانت كلها أمل في حياة أفضل، لكن سرعان ما اصطدم المهاجر بواقع مر تسوده علاقات استغلالية ليست بأقل حدة من تلك التي تركها في الوطن الأم، فموقف القاص من موضوع الهجرة، هو مجابهة الصورة المتداوية للواقع الاجتماعي في القرية التي تبدو في ((تصوير الأثر الاجتماعي لاستغلال ملاك الأراضي لطبقة المزارعين وتكبيدهم العناء الذي يثير في حياتهم الغربة والشقاء الأمر الذي يدفعهم إلى الهجرة والبحث عن مشارف أخرى، يجدونها مع بريق العمل في المدينة وهذا ما يحفز في الكاتب دعوته إلى الارتباط بواقع الريف، وكفاح المزارعين مع شقاء المهنة التي تعرضهم للسخرية))¹

¹ -عبد الله غلوم، القصة القصيرة في الخليج العربي، مطبعة الإرشاد، بغداد 1981، ص 481

المبحث الثاني: السكن واهتمامات أخرى

أ - السكن:

من بين المشاكل التي عانى منها الشعب الجزائري خاصة بعد فترة الاستعمار مشكلة السكن التي أصبحت تزعج الشباب الجزائري بصفة خاصة، وبما أن الحياة الاجتماعية هي المنبع الأول والأخير الذي يغرف منه الأدباء فإن ((أكثر ما يلفت انتباه الدارس حين يعرض لهذا الرتل من القصص العربية أنها جميع رغم اختلاف حظها من الإتقان والقيمة تمس المجتمع وتمنح مواضيعها منه حتى ليعلو بعض الكتاب فيجعل من القصة شيئا أشبه ما يكون بالمقالة الاجتماعية التي تعالج آفة من آفات المجتمع أو يتعرض لبعض عاداته وعيوبه بالجرح والنقد والتقويم))¹، ويعود كل ذلك إلى حب التغيير والتعبير عما يعاني منه أفراد المجتمع وإعطاء بعض الحلول التي يراها هؤلاء الكتاب مناسبة .

في قصة (الأضواء والفئران) :

يعبر القاص (مصطفى فاسي) في قصة (الأضواء والفئران) عما يعانيه معلم مدرسة من أزمة سكن مزمنة، لم يستطع مرتبه الزهيد أن ينتشله من براثن الفاقة التي طحنته طحنا فجعلته لا يفكر في امتلاك سكن لائق يتيح له العيش الكريم والمحترم لكنه في الأخير يجد نفسه في السجن لأنه اقتحم منزلا ليس له . إن بطل القصة إنسان مثقف ومتعلم له قيمته المعنوية بين الناس فهو معلم مدرسة يلقي الأطفال مبادئ الأخلاق والاستقامة، وهو إنسان محترم من طرف التلاميذ وأولياءهم، فهو يمثل المثل الأعلى الذي يسعى كل أهل القرية إلى الاقتداء به .

¹ - سالم جورج، على هامش الأدب العربي، مكتبة الشرق 1965، ط1، ص 17

لكنهم لا يقدرون مأساته التي يعاني منها، ومن هذا المنطلق كان المتعلم يتصرف تصرف الإنسان المقهور، الذي لا يجد أمامه حلاً لمشكلته ((أنت يا أحمد ماذا تشاهد في الصورة ؟

سيدي أنا أشاهد منزلاً رائعاً ...

وأنت يا عمر .

نعم سيدي إنه رائع جداً .

علي وأنت .

أنا أرى قصراً فخماً ...

يا إلهي ...

وأنت ...

سيدي أنا أرى فيلاً جميلة تحيط بها حديقة ساحرة فيها أشجار عالية تقف فوقها البلابل المغردة، وفيها أزهار من كل لون، كما أرى في الحديقة بيتاً جميل للكلب. .. هذا لم أفكر فيه ¹)) وكأنه صفع إذ لا يعقل أن يتمتع الكلب بمنزل جميل ويعاني إنسان محترم مثله ومربي أجيال من فقدان السكن اللائق به، وهذا هو الوجه الآخر للبرجوازية وريثة الاستعمار فكراً وسلوكاً فهو لا يملك سوى منزل ((تتداخل غرفة منزله في بعضها لتصير غرفة واحدة ²)). وكانت كل هذه الخواطر تدور في ذهنه وهو راجع من المدرسة إلى كوخه الذي رفضت الحكومة إدخال التيار الكهربائي إليه لأن القانون يمنع ذلك . ويريد الكاتب تعميم هذه المشكلة، فتصبح غير مقتصرة على المعلم وحده، فهذا حلاق لم يستطع بناء مسكن ليسعه هو وأبناؤه، فبنى قصراً من الكبريت فيتمنى لو تكبر ((يخيل إلي أنها بدأت تكبر، آه، لو تصير كبيرة حقيقة، خير لك أن تتمنى لو تصير أنت صغيراً

¹ - رجل الدارين وقصص أخرى، ص 54

² - المرجع نفسه، ص 55

كالقزم¹)). إن هذا اليأس والتشاؤم جاء نتيجة واقع محتم فرض على المعلم فرضاً فسلبه حتى مجرد التمني . فالإنسان البسيط لا يجب عليه أن يكبر، بل يجب عليه أن ينزل إلى تحت في حين يصعد ويكبر الكبار ومع أن المعلم إنسان مثقف ولا يجب عليه أن يفكر مثل هذا التفكير لكن لما تكون الظروف أقوى من الإنسان، فإنه يخضع لها ويشعر بفلسف الحياة حسب مستواه المادي والمعيشي اليومي، ويتناول القاص أيضاً جانب الزواج عند المعلم، وعلى محاولة بعض المعلمات الاقتراب منه ابتغاءاً للزواج منه، وعلى طمعه في ذلك وتطلعه إليه في قرارة نفسه فإنه لم يكن قادراً على الارتشاف من رضاب هذا الحلم الذي ظل يراوده ويتأوبه، ويقارفه ولا يفارقه²، وكان ينصح لكل من حاولت الاقتراب منه أن تبتعد عنه ولا تعود إليه أبداً، وذلك ما نصح لمعلمة حاولت الدنو منه : ((أرجوك، لا تنتظري، اذهبي وابحثي عن رجل يسكن في منزل وتزوجيه))³ وقد كان هذا المعلم الفقير المحروم حدث نفسه من قبل متعجباً بهذه التي نزلت بها المروءة إلى أن تطمع فيه حاسة أنه قادر على إيوائها ((مسكينة هذه أيضاً مخدوعة جديدة في المدرسة، لا تعرف عني كل شيء، شيئاً عن فاطمة، ولا عن باية، صبرت الأولى ثلاثة سنوات، ثم تزوجت، وانتظرت الثانية عامين ونصحتها أن لا تضيع وقتها))⁴.

إن هذا اليأس لا يقود إلا إلى الهروب من الواقع بدل المواجهة والسعي وراء حل مناسب فيذهب المعلم إلى الحانة ((لأنه لا بد من المرور هناك قبل أن ينفجر هذا الرأس الأصلع الغبي ... لا بد من الترويح عن النفس ... لم يمكث طويلاً،

¹ - المرجع نفسه، ص 56

² - عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية القصيرة، ص 57

³ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 56

⁴ - المرجع نفسه ، ص 56

اكتف اليوم بنصف النصاب , شعر بشيء من الحرارة تسري في دمه منتصرة على برودة المساء ¹

إن هذا التصرف لا يليق بشخصية المعلم خاصة أن أدواته المدرسية مازالت معه (المحفظة والصورة الإيضاحية)، وهذا التصرف ليس له مبرر جمالي إلا في ذهنية الكاتب الذي رسم خطوات بطله بدقة متناهية بحيث لا يمكنه الإفلات منها، لأن الكاتب أراد الوصول ببطله إلى نقطة معينة حتى لو كان ذلك على حساب المنطق .

فالبطل إنسان محترم ومثل العديد من الناس، ويظهر من تصرفاته أنه يريد الحفاظ على هذا الاحترام بدليل أنه لما ابتعد عن المدينة قليلاً أراد أن يتخلص من هذا الثوب ويتصرف كإنسان عادي ((أنا هنا ... أنا فقط ... ولست ذلك المحترم، فلأصفر لأعني كما أريد، هنا لا يعرفني أحد))²، وهذا يتناقض مع تصرفه الأول عند دخوله الحانة أمام كل الناس، وإنما كان ذلك كما قلنا بإرادة الكاتب التي أملاها على بطله .

وفي طريقه إلى المنزل يمر المعلم بمجموعة عمارات جديدة لم تسكن بعد وأخذ يتطلع فيها ويمني نفسه بشقة صغيرة، لكن هذا حلمًا وليس واقعاً لأنه ليس مسجلاً لدى الدوائر الرسمية، وقد دفعت كل هذه الصعاب والمشاكل واليأس إلى اقتحام شقة ليست له، فلم يكن أمام أجهزة الأمن إلى أن زجت به في السجن، وهناك فقط حصل على غرفة تختلف عن منزله ((ماذا ...؟ ... أن ... أنا أحلم . غرفة مربعة الشكل جدرانها لا يسيل منها الماء وسقفها ... سقفها مرتفع لا تسقط منها التربة، واقترب من الجدار، مسه بكلتا يديه، نعم جدرانها لا يسيل منها الماء، وملاً الغرفة بقهقهة عالية . والتفت إلى الباب المغلق كانت فيه نافذة صغيرة تتخللها قضبان حديدية ...

¹- نفس المرجع، ص 57

²- المرجع السابق، ص 58

اسمع يا خو ... يرحم والديك، تقدر تقول لي أشكال ثمن الكراء هنا ¹))
 ورغم ما في هذه النهاية من سخرية فإن ما وصل إليه المعلم لا يعد حلا منطقيا
 لأن عملية اقتحام المنازل تزيد المشكلة تعقيدا ولا تحلها وإن ما خسر المجتمع من
 ورائها مربى أجيال ضرب بالقيم الأخلاقية التي كان يدرسها لتلاميذه، عرض
 الحائط، لان الظروف التي كانت أقوى منه، كما أن هذه النهاية لم تأت نتيجة
 عوامل واضحة، في القصة وإنما جاءت مخالفة تماما لسلوك المعلم المثالي، فقد
 كانت شخصيته في الأول مثالية مستسلمة وفانية في الأحداث وهاربة في الواقع،
 لكن هذا السلوك تغير فجأة، فقرر المعلم السطو على المنزل وحين يزعج به في
 السجن يعبر عن سعادته .

وإذا كان هذا التغير في السلوك من حق الشخص، بل من واجبه، فإنه يجب
 أن يكون عن اقتناع ووعي تامين بنتائج هذا التغير فالمعلم لا يتصرف بقناعته
 الخاصة فجاءت شخصيته متناقضة مع سلوكها، فبعد أن كانت تدرس لأصول
 الأخلاق للأطفال وتبث فيهم روح الاستقامة وفعل الخير، أصبحت تقوم بما يخالف
 ذلك، فسلكت سلوكا مخالفا وانتهت إلى السجن .

ورغم أن الكاتب سخر لقصته عدة وسائل جمالية من جمل قصيرة ومنولوج
 داخلي وحوار وتداخل الأزمنة إلا أنه لم يحل المشكلة في شيء بل يثيرها بحدة
 متناهية، ثم يتركها كما هي معلقة . فالكاتب ليس مساعدا اجتماعيا، ولكنه كاتب
 يرسم الأوضاع ويثير مشاكل الناس كما أنه حاول تصوير واقع مواطن محدود
 الدخل قليل الرزق، قاصر النفوذ فلا يجوز له أن يأمل كثيرا، وما عليه إلا التسلح
 باليأس عدة .

ب - اهتمامات أخرى :

1 - القطاع الصحي :

¹ - نفس المرجع، ص 60

ـ في قصة (الباب الثاني) : يحاول الكاتب في هذه القصة فضح التجاوزات التي يقوم بها أحد الممرضين في القطاع الصحي، ويستغل منصبه للربح والارتزاق .
 فرئيس الممرضين يقدم المرضى إلى الدكتور ليفحصهم حسب هواه وحسب ما يمكنه أن يكسبه من وراء ذلك .

إن بطل القصة يتصرف وفق قناعاته الخاصة وفكره الاستغلالي وقد جعل من منصبه هذا نافذة ربح وتجارة على حساب المرضى الذين ليس لهم ما يعطونه .
 ففي حين كان أحد المرضى يتلوى من شدة الألم، كان رئيس الممرضين يتحدث مع رجل ثري ((سألتني عن الطرد الذي أرسلته لي من باريس ؟

ـ هل وصلك ؟

ـ وصلني، أشكرك كثيرا، أعجبني كل ما فيه، وقد وصلني في الوقت المناسب قبل العيد بيومين))¹ .

ويدخل الرجل وابنته إلى غرفة الطبيب من الباب الثاني حيث دخل هذا الأخير أيضا حتى لا يراه المرضى ((حمل القلم بعد أن جلس إلى المكتب ثم كتب ورقة صغيرة ونادى أحد الممرضين، وعندما جاء الممرض واقترب منه وهمس في أذنه ثم أعطاه الورقة فتبعه الرجل والفتاة وقبل أن يفتح باب المكتب التفت إلى رئيس الممرضين وسأله : عفوا تذكرت من أي باب دخل ؟ من الباب الثاني))²

وأمام إلحاح أهل الشيخ المريض يلتفت إليهم رئيس الممرضين بامتعاض وكأنه صاحب المستشفى، وسأل عن المريض الذي جاء من قبل ذلك مرات عديدة وكان لا يقبل أنه لا يوجد محلات في المستشفى، فعمد وبكل خبث إلى تهدئة الأهل ((طيب اذهب إلى هناك واسترح، يبدو أنك متعب، إن الطبيب ما زال لم يأت يجب أن تنتظر))³

¹ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 39 _ 40

² - مصطفى فاسي : رجل الدارين وقصص أخرى، ص 41

³ - نفس المرجع، ص 42

واشتد المرض بالشيخ والتفت حوله بقية المرضى وأهاليهم و((على الدم في عروقهم نظروا إلى بعضهم في حسرة، براكين خربتها النيران المشتعلة من الداخل ولكنها لم تنفجر))¹ . لم يستطع هؤلاء الناس فعل شيء أمام هذا المنظر المزعج والمؤلم في حين أنه كان بإمكانهم اقتحام غرفة الطبيب، لأن هناك من دخل قبلهم، وأمام هذا الموقف بقوا مكتوفي الأيدي، فانتصر الاستغلال واللامبالاة المتمثل في رئيس المرضين لأن الشيخ مات أمامهم بالرغم من وصول الطبيب لكنه وصل متأخرا لأن المريض لم ينتظر قدومه .

ورغم الحقد والفورة الداخلية التي عمت القاعة، إلا أنها كانت فورة مكتومة لم تستطع الخروج وإعلان الحقيقة ومكافحة هذه الآفات .

وقد نجح الكاتب في تصوير التلاعب الموجود في المؤسسات العامة رغم أسلوب اليأس الذي اتبعه في قصته، وكان موت المريض إذانة صريحة للتلاعب والتجاوزات التي يقوم بها بعض المسؤولين في الجزائر، رغم أن مجانية العلاج اوجدت لتجاوز النقائص والأخطاء التي كانت ترتكب . كما أدان الكاتب وبصورة غير مباشرة المجتمع الذي ساهم في خلق هذه النماذج البشرية الطفيلية التي تعيش على حساب الغير، وذلك عندما أبرز غضب المرضى لكن دون تحويل هذا الغضب إلى فعل من شأنه أن يغير مجرى الأحداث كما نجح المؤلف في تصوير القابل الموجود بين وضع المريض وتألمه وحديث رئيس المرضين مع الرجل وابنته ((صح ليك، وانطلقت منه ضحكة ... الأنين يشتد يعلو يملأ القاعة))² فجاء تصرف رئيس المرضين انطلاقا من وضعه الاجتماعي ومستواه الفكري وطبيعة وظيفته التي استغلها في غير صالح المواطنين، فكانت وسيلة للسلب والنهب .

¹ - نفس المرجع، ص 42

² - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 42

فقصة (الباب الثاني) عالجت اللامبالاة من قبل الممرضين والأطباء وفوضى تسود هذا القطاع من رشوة لمصالح ذاتية ومحسوبية على حساب الفقراء والمعوزين¹

في قصة (ثرثرة مريض) :

تعالج مشاكل الصحة الذي سبق لفاسي طرحه في قصة (الباب الثاني) إلا أن هذه المرة تكشف جانبا آخر من العملية، هناك مسؤول كبير يقوم بزيارة المستشفى، حيث تسبقه عملية تنظيف واسعة وتزويق كبير لكل ما في المستشفى إلا أن أحد المرضى يقوم بكشف هذه العملية أمام المسؤول عما يجري في المستشفى والأسئلة الكثيرة التي راودته ((من أين أبدأ .. لا هذا كثير جدا يا سيدي، إذن سأقول بعض الأشياء فقط، ولكن ماذا أقول ؟ ماذا أقول بالضبط))² أخبره عن المعاملة السيئة للطفل الصغير من طرف الممرضة التي صفعته لأنه بكى وعن مدير المستشفى، الذي لم يزر المريض إلا بقدم المسؤول ((... حتى مدير المستشفى، لقد زارنا اليوم ثلاث مرات كاملة... إنه ذلك السمين الأصلع العريض الوجه الذي يضع نظارة بيضاء على عينيه ... ربما كنت تعرفه قبل اليوم ... أما نحن يا سيدي فلم نراه إلا اليوم))³.

وعن النظافة الغائبة لإهمال المسؤولين ((سيدي عندما تقيأ ذلك الطفل الذي ذكرت لك سابقا ظلت رائحة قيئه تملأ القاعة، أكثر من يوم، غسله أحد المرضى))⁴.

2- تعلم المرأة :

¹ - أحمد حمدي، إشكالية الموقف، جريدة المجاهد، عدد 1060، نوفمبر سنة 1980، الجزائر

² - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 61

³ - المرجع نفسه، ص 64

⁴ - المرجع نفسه، ص 65

- في قصة (والقطار يسير) : يقدم لنا القاص شيخا بصحبة ابنته ويصف لنا القاص بأن الفتاة ((كاد اليأس يتغلب عليها عندما أمسكت أباها))¹، هذه الجملة هي الأولى التي تفتتح بها القصة، فهي تعني شيئا عند صاحبها الذي وضعها دون أن يقول لنا لماذا كاد اليأس يتغلب عليها ؟ هل لأنها كانت تبحث عن شخص ما ولم تعثر عليه ؟ لكن القاص لا يشير إلى ذلك ونحن نعرف أن الفتاة ذاهبة إلى العاصمة حيث ستزاول دراستها، وأن أباها يرافقها إلى القطار، ومنذ البداية يعرفنا الكاتب بمخاوف الأب، فهو متخوف على ابنته، تنتابه أفكار متناقضة فيما يخصها فهو من جهة ((وإنقا أنها تفكر في حماية شرفه))²، ومن جهة أخرى فإن الواقع يصدمه بمشاهد ((بدون حياء ولا حشمة))³ فتزداد مخاوفه على ابنته ولكن لا يلبث أن يهدئ منها لثقته من ابنته وبعد أن يدخلها إلى إحدى المقطورات في القطار ينصرف ويصادف أن يتذكر أن رسالة وصلته من أخيه بالمحمدية يعلمه فيها أنه مريض فيقرر أن يذهب إليه وبذلك يمكنه مصاحبة ابنته على الأقل بضع كيلومترات وما إن دخل مقصورتها حتى وجدها ((تقرأ غزلا باللغة الفرنسية، بينما شاب مسند رأسه على فخذاها))⁴ ولنتصور مدى المفاجأة التي سوف يصاب بها هذا الشيخ .

تطرح القصة قضية صراع الأجيال، فالقاص يركز على شخصية الشيخ أكثر فهو زاوية الرؤية، وبأنه يعطي الأولوية للنظرة السلفية المتولدة عن تقاليده وعما شب عليه بحيث أن في زمان كان الرجال يرون المرأة فيخفضون أنصارهم، وكان الواحد منهم ((لا يرى زوجته إلا بعد الزواج))⁵، فهل وضع القاص الشيخ

¹ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 45

² - المرجع نفسه ، ص 45 - 46

³ - المرجع نفسه، ص 48

⁴ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى ، ص 51

⁵ - المرجع نفسه، ص 48

بؤرة لإحساسه بأنه جيل في سبيل الزوال ؟ إن الفقرة الأخيرة تؤكد هذه النظرة من خلال إيجاد القاص معادلا موضوعيا بين الزمن وما يحتويه من تقدم في سيرة وبين ((القطار المنطلق كالشعبان الهائل))¹ وبين هذا الجيل الجديد الذي ((لا يسمع صوته المبحوح الضعيف))² وبين الركاب، إن القطار منطلق بسرعة والشيخ ما يزال يردد اسم ابنته وكأنه يستغيث .

3- النقل :

_ في قصة (سي المولود) :

ركز القاص (مصطفى فاسي) على طرح ((هذا الموضوع الاجتماعي الناشئة مشاكله، في حقيقة الأمر عن مشكلة السكن . فالناس حين يحرجمون في مآقط واحد ينشأ عن ازدحام المكان بهم مشاكل منها السكن والنقل والماء والصحة والتعليم، وهلم جرا من مشاكل حضارة العصر الذي نحياه بتناقضاته التي لا تزال تمزقنا وتشقينا))³

تجري أحداث القصة في محطة الحافلة، حيث يجتمع الناس كل يوم لانتظار القدوم، وأثناء هذا الانتظار، يقضي المنتظرون وقتهم مع (سي مولود) الذي اعتاد أن ينتظر مع الجمهور .

لا تتضمن هذه القصة حادثا معينا إنها صورة لشريحة اجتماعية في لحظة معينة وهي تبدو مجرد تسجيل لهذه اللحظة، لحظة الانتظار غير أننا لو تمعنا مليا في علاقة انتظار الجمهور الحافلة من أجل الركوب، ومنتظرها سي مولود من أجل الانتظار، وانتظار سي مولود للحافلة هوايته المفضلة، في مقدمته كتب الحروف الأولى لاسم طربوشه، فضلا عن حبه لتمثيل دور المراقب للحافلات، إذ كان يسجل وصول كل حافلة مع استكثار لتأخرها أو قدومها مملوءة، ويخفف غضبه

¹ - المرجع نفسه ، ص 52

² - المرجع نفسه ، ص 52

³ - عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، ص 68

بوضع قليل من الشمة تحت لسانه بينما يكتم الجمهور المنتظر قلقه بإشغال السجاير .

الانتظار جوهر الصلة التي تربط الجمهور بسي مولود، الذي ينتظر دوما الحافلة ولكنها لا يركبها، فهو يرفض العودة ويرفض الإجابة عن أي سؤال يتعلق بحياته السابقة أو عن المكان الذي منه ورغم هذا فهو ينتظر الحافلة، ينتظرها من أجل الناس أو عوضا عنهم، هو الذي ينوب عنهم في إظهار القلق والنظر إلى الساعة في كل لحظة .

جعلت القصة سي مولود والجمهور المنتظر للحافلة في موقف واحد، وهما يقومان بنفس الحركات (العضلية والنفسية) كلاهما مريض، سي مولود مصاب بمرض الانتظار من أجل الانتظار وأصيب الجمهور بمرض للانتظار من أجل الانتظار . غير أن فهم أبعاد هذه القصة لا يتم بدون أن تعرف علاقة الشخص السمين المتربع على يمين المقعد الخلفي في سيارة مرسيدس في هدوء وسكينة ((كان هادئا تماما يبدو وهو ينظر في الفراغ تحت نظاراته المذهبة وكأنه يفكر في أمر هام))¹ .

ينتظر الجمهور الحافلة لكي تحمله، وينتظرها سي مولود لكي تمر أمامه فيخط على ورقة خطوطا لا يفهمها ((وهذه حلته منذ حوالي عشرين عاما وينتظر صاحب المرسيدس شيئا ما ؟ هل هنا نهاية لهذا الانتظار ؟ لقد ظل سي مولود ينتظر منذ عشرين سنة ولا يزال ينتظر وانتظر الجمهور الحافلة تلو الأخرى، وهاهو صاحب المرسيدس ينتظر .

الانتظار مرض أصيب به الإنسان، ودواؤه بالنسبة للجمهور يكمن في وصول حافلة فارغة ولكن ما علاجه بالنسبة لسي مولود وصاحب المرسيدس ؟

¹ - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ص 85

قد تبين لنا من خلال تفصيلنا لقصص المبحث، أنه يوجد محور مستحوذ على مخيال القاص (فاسي)، وهو محور الفقر وذلك إذا راعينا أن ظاهرة الفقر، في حقيقة أمرها، أم كثير من القضايا الاجتماعية، كالنقل والسكن والصحة، فما هذه المشاكل الاجتماعية في حقيقتها، إلا ثمرة من ثمرات الفقر الجاثم، والحاجة المقيمة . فلا ينبغي أن نتحدث عن مشكلة السكن الضيق، أو السكن المتقادم أو السكن المنعدم أصلاً، إلا بمثل الفقر ووجوده . كما لا ينبغي أن نتحدث عن مشاكل النقل داخل المدن، أو فيما بينها، إلا بحضور الفقر أساساً وهكذا مع المواضيع الأخرى، وإذا كان اهتمام القاص انصرف إلى بعض القضايا الاجتماعية دون سواها ذلك أن ظاهرة الفقر كثيراً ما تستهوي قلمه فيجري فيه، ويلذ للخيال فيلحق في أجواءه المتأزمة القائمة . وكذا كونه ملتزم بالقضايا الوطنية والاجتماعية .

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث نورد إثبات الصورة العامة واستخلاص بعض النتائج العامة من السياق العام للموضوع المدروس والذي يخص المضامين الاجتماعية في الأضواء والفئران عند (مصطفى فاسي) .

إن القاص (مصطفى فاسي) في مجموعته (الأضواء والفئران) نجده يعيش المرحلتين المتباينتين، فتراه يغوص بقلمه في خضم السنين التي ضاق فيها شعبنا أحلك ليلة وليعبر بأسلوبه الممتع الجذاب عن جوانب كثيرة تخبط فيها المجتمع الجزائري آنذاك .والقصص كما هو الحال في أية مجموعة كانت متفاوتة الأهمية والجودة والبناء، استقطبتها مواضيع ومشاكل يومية متعددة :

الهجرة في (مغترب والعائدون)، ومشاكل السكن في (الأضواء والفئران) والبيروقراطية واللامسؤولية في (الباب الثاني) والمشاكل التي تطرح عن الطب المجاني حالياً في بلادنا والثورة الوطنية وهذا الموضوع كان نصيبه حصة الأسد داخل المجموعة (وطلعت الشمس) لعبه الكولون في استغلال أراضي الأهالي،

وصراع الأجيال والأفكار السائدة والتي يجب أن تكون داخل مجتمع يتطور بشكل سريع ومتواتر في (القطار يسير) وغيرها من المواضيع الأخرى التي تشغل (مصطفى فاسي) كما تشغل غيره من الكتاب الشباب في الجزائر . فكل المواضيع المطروحة طرحت بشكلها الموجود على مستوى اجتماعي ففاسي يحمل كاميرا ويلتقط الموقف بشكل جيد وكشف الأبعاد الدرامية التي يعيشها هذا البطل وذلك، فاللحظة النفسية الصعبة المتحركة لا يمكن أن تهزها إلا لغة دينامية متحركة وإلا كان الموضوع والصورة اجترار لما سبق في الكتابات العربية الأخرى التي تعاطت الإبداع القصصي.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - أحمد بعلبكي : المسألة الزراعية في ريف الجزائر، ج1، ط1 منشورات عويدات، بيروت 1985 .
مصطفى فاسي : رجل الدارين وقصص أخرى، ط1 شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007
- 2 - جورج سالم: على هامش الأدب العربي، ط1، مكتبة الشرق 1965.
- 3- حميد لحمداني : الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب . 1986
- 4- رشاد رشدي : فن القصة القصيرة، ط2، دار العودة، بيروت 1975
- 5- عبد الحميد بن هذوقة : نهاية الأمس، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980
- 6 - عبد الله الركبي : تطور النثر الجزائري الحديث، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس 1983 .
- 7 - عبد المالك مرتاض : القصة الجزائرية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران 2004 .
- 8 - عبد الله غلوم : القصة القصيرة في مصر منذ نشأتها حتى سنة 1930°، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1977 .
- 9 - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 تر: حنفي بن عيسى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.
- 10 - مصطفى فاسي، رجل الدارين وقصص أخرى، ط1، شركة دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر 2007.
- 11 - محمد مصاييف : دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981 .
- 12- — : القصة العربية في عهد الاستقلال الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سلسلة مكتبة الشعب، الجزائر 1982.

13 - مغنية الأزرق : نشوء الطبقات الاجتماعية، تر: سمير كرم، ط1 مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان 1980 .

14 - محمد نصر مهنا : تجربة التنمية والتحديث في الجزائر، ط1 دار الثقافة الجديدة القاهرة 1978.

15 - واسيني الأعرج : اتجاهات الرواية العربية في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1976.

المجلات :

1- أحمد حمدي، إشكالية الموقف، جريدة المجاهد، عدد 1060 نوفمبر 1980، الجزائر .

2- منور بن يمين، تحطيم الواقع بشكل تقليدي، جريدة الجمهورية عدد 25 سبتمبر 1980، الجزائر .

3- واسيني الأعرج، ولادات (لاسنيد) المستعصية، جريدة الجمهورية عدد 4 سبتمبر 1980، الجزائر .